بين الفصحى والعامية بالمغرب*

للأستاذ الدكتور عبد الهادي التازي

اهتم المغاربـــة اهتمامًـــا كبـــيرًا بالبحث حول أصول الكلمات العاميـــة في اللغة العربية، ولابد لـــي هنـــا أن أحيل على البحـــث الـــذي خصصتـــه لمجمعنا الموقر في دورتـــه السادســـة والخمسين سنة ١٩٩٠م والذي فصَّلتُ فيه الموضوع عندمـــا قدمـــتُ أمـــام المجمع تأليفًا مغربيـــا للشـــيخ أحمـــد الصبيحي – رحمه الله – يحمل عنوان : "إرجاع بعض الدارج بالمغرب إلـــى حظيرة أصله العربي"، ذلـــك التقديـــم الذي أرجو أن يضاف إلـــى أعمـــال مؤتمر المجمع لهذه الدورة الخامســـة والستين..

والآن وبعد مضي تسع سنوات على الموضوع نلاحظ أن اهتمام المثقفيـــن بالمغرب يتزايد بالموضـــوع حيـــث تطالعنا الصحف من يوم لآخر بالبحث عن هذا التعبير أو ذاك، ومن الطريف في هذا الصدد أن نسجل أنهم جميعًـــا يشاركون في هذا الحوار محاولين بكل ما استطاعوا أن يبحثوا عن حضـــور الدَّارج في المعجمات العربية .

وأذكر هنا للفائدة أن الأستاذ الشـــاعر المعروف محمد الحلوي أخـــذ علـــى عاتقه الكتابة حول موضوع الفصحـــى في العامية المغربية ، ومن هنا كـــان معجمه الذي أصدرتْـــه عـــام ١٩٨٨م شركةُ النشر والتوزيع بالدار البيضـــاء تحتَ عنوانْ" معجـــم الفصحـــى مـــن العامية المغربية"... ولم يقف الأســـتاذ الحلوي عند هذا الحد ولكنـــه عودنـــا على أن نقرأ له مقالاتٍ متتابعةً علـــى صفحات (العلم) التي تـــوزع علـــى

---

* ألقى هذا البحث فى الجلسة الرابعة من مؤتمر الدورة الخامسة والستين يوم الأربعـــاء ٢٢ من ذى القعدة سنة ١٤١٩هـ الموافق ١٠ من مارس (آذار) سنة ١٩٩٩م.

نطاق واسع داخل المغرب وخارجه...

ويتتبع الأستاذ الحلوي بعنايةٍ طائفةً من العبارات والألفاظ الدارجة التي تجري على ألسنة المغاربة . والمهم في الموضوع أن تعليقاته لا تبقى بدون تعقيب حيث نشهد عدداً كبيرًا من الأساتذة يتعقبون أقواله تارة بالتزكية والتأييد ، وتارة أخرى بالمعلومات التي يضيفونها إلى ما يقوله مستدلين محتجين بهذا الأثر أو ذاك .

ولعلَّ من المفيد أن نعرف أن هذا الموضوع لم يبق مقتصرًا على العامية المغربية، ولكنه تعداه أيضا إلى العامية المصرية والسورية ! لماذا ؟ لأن المسلسلاتِ والأفلامَ الشرقية عندما دخلت بيوت المغرب تسربت معها كذلك لهجات القاهرة ودمشق ... وأخذ عامتنا بدورهم يستعملون تلك الألفاظ وكأنها من دارجتهم ... !

وهكذا أمسى المغاربة اليوم يهتمون أيضًا بدارج المصريين ودارج السوريين على نحو ما كان بالأمس من اهتمام أحمد تيمور باشا بلهجة ديار مصر واهتمام إسكندر معلوف بلهجة الشام .

وقد أشاد الأستاذ الحلوي وقبله زميلنا الراحل الشيخ عبد الله كنون بأصالة السليقة العربية عند المغاربة وتمكُّنهم من قواعد اللغة العربية ، وأن من المغاربة من كان لا يتكلم إلا بكلام معرَّب حتى في الأحوال العادية(*).

وقد ألفت بعضُ الحالات في العامية المغربية الضوءَ على الموضوع ومكَّنت من عدة ملاحظات:

أولاً : أن اللسان الدارج الذي كان إفرازًا أفرزتْه الفصحى لم يُفقد – في أغلب الحالات – الكلمة العربية بِنْيَتَها وطبيعتَها رغم ما تَداولها من ألسن لم تكن العربية لغتها .

ثانيًا : أن توظيف العامة للكلمات واستعمالهم لها لم يكن عفويًّا .. ففي كثيرٍ من الحالات نُفاجأ بأمثالٍ وتشبيهات وصور تنم عن تذوقٍ

(*)معجم الفصحى ص ٩.

للمعاني وإحساس بالجمال .

ثالثاً : أن استعمال العامي لـــم يُبعــد الكلمةَ الفصيحة عن مدلولها العربـــي السليم، كذلك فهو لـــم يشـــوِّهُما بمـــا يُبعدها عن جَرْسها وإيقاعها، والتغيـيرُ الذي يلحقها يكاد ينحصر فـــي تغيـــير حركاتها أو قلْب بعض حروفها. .

رابعًا : أن صدر عاميتنا لم يضق عن احتضان الدخيل الذي استعملته إلـــى جانب اللفظ العربي للهجتها المحلية . وهكذا فإلى جانب " الفصيح المُـدَرج " نجد كلماتٍ مولدةً تركيـــة وفارســية ويونانية وأمازيغية كذلـــك، وتعـــاملت معها كما تعاملت مع اللغة العربية(*).

ومن المهم أن نذكر هنا أن الأســـتاذ الحلوي قبل أن يقوم بجرد المفـــردات والتعابير بلغ إلى ثمانيـــة وعشـــرين وسبعمئة مفرد ضمَّنها زهـــاء أربعـــةً وســـتين مثـــلاً زادت فـــي توضيـــح المقصود، قبل ذلك أتـــى بمـــا ســـماه (نحويـــات لابـــد منهـــا) حيث أكد أن العامية المغربية كغيرها من اللَّـــهجات فيها ما يمكن اعتباره ضوابط يلـــتزم بها العامي وهو يتكلم .. وعَـــى تلـــك الضوابط من والديه فـــي المـــنزل أو أقرانه فى الشارع .

ويذكر الحلوي نمـــاذج مـــن هـــذه النَّحويات التي نشاطره الرأي فيها . فمثلاً تلتزم العامة الحرف (تا) أو(كـــا) في كل مضارعٍ يدل على الحـــاضر، فهم يقولون : فلان تيتعلَّـــم أو كيتعلـــم إلخ ويستعلمون الحرف (أش) كـــأداة للاستفهام بمعنى : كيف، كقولهم : أش خبرك ؟ أش حالك ؟ وبمعنـــى مـــاذا أيضا فـــي مثـــل: أش عملـــت ؟ أش قضيت ؟ ويستعملون كلمـــة (بـــاش) ومعناها بأي شيء؟ في مثل قولنا باش طبع كتابه ؟

ويستعملون كلمة (مناش) بمعنى مـــن أي شئ ؟ كقولهم منـــاش ربحـــت ؟ ويستعملون (فوقاش) بمعنى متـــى ؟ فوقاش سافر ؟

(*) المصدر السابق ص ١٢

ويستعملون كلمة (ماشي) في محل السّين الداخلة على المضارع مثلا ماشي نسافر غدًا أي سأسافر غدًا .

ويستعملون كلمة (ياك لاباس) بمعنى ماذا حصل ؟

ويستعملون كلمة (ناشْ) من كل الأفعال المنفية يختمون بها الفعل : قولهم ما عملْناش ما شارَ كْناش !

ومن المفيد أن نعرف أن طريقة المبني للمجهول في الدارجة تختلف عن ما نعرفه في العربية، وهكذا نستعمل للدلالة على المجهول حرفين (أت) بتاء مشددة فنقول في فلان ضُرِب : فلان اتضرَب، وفي قُطِع الثوب : الثوب اتقطَّع !

ومن الملاحظ كذلك أنه لا توجد نون للنسوة عندنا في الدراجة ، هكذا فإن واو الجمع وحدها هي التي تستعمل للذكور والإناث، فنقول الرجال خرجوا والنساء خرجوا كما نستعمل مثل ذلك للمثنى مذكرًا ومؤنثا .

نقول مثلا : فاطمة وزينب خرجوا !

ولَكَمْ كان زملاؤنا الأساتذة المصريون الذين وردوا على المغرب للتعليم في المعاهد المغربية، يلاحظون مخاطبتَنا للمذكر بتاء التأنيث ، يُسمع أحدُنا وهو يخاطب أخَاه أو ابنه : علاش تأخرتِ؟ علاش تكلمتِ ؟

هذا إلى أنَّ دارجتنا تبتدئ بالساكن : شْرَب الولد .. خْرَج الأستاذ ومن المفيد كذلك أن نعرف أن الدارجة بالمغرب لا يوجد بها "همزة " للمتكلم، وأن حرف النون وحده هو الذي يستعمل للجمع وللمتكلم الواحد فيقال أنا غَدَّ نْسافر ! وتقول حاكيًا لوفدٍ أو جماعة " حْنا غدًّا نسافرو ! .

ولا يكتفى في الدارجة بالنون في الدلالة على الجمع في المضارع لكننا نلحق،إلى جانب النون في البداية، واو الجمع في الآخر فنقول:نتعلمُوا نسافروا وينكر الاسم المفرد بذكر لفظة(واحد)قبل الاسم المقصود تنكيره، وهكذا نقول واحد الرجل!واحد المرأة!

وتقلب العامة هـــاء الغـــائب واواً وتنقل الضمة إلى ما قبلها فى مثـــل : عوَض قَالَ، نقول قالْ لُو ، وعَمِل له : عمل لُّو، ومن كلامهم : الغايب مـــالو شوار ، فالواو عوض الهاء ..

وكان مما يلاحظ في هذا الصـــدد قلب الحروف، وهي ظاهرة متفشـــية في عاميتنا وهي لا تخضع لضوابـــط ثابتةٍ، ولكنها وليدة الحس اللغوي الذي تتوفر عليه العامية، وهناك عدة أمثلـــة لما نقول :

الهمزة مثلا قد تقلب قافا عكس مـــا يحصل عند إخواننا المصريين عندمـــا يقلبون القاف همزة في غـــير كلمـــة (القرآن) وكلمة (القاهرة) !

وقلب الجيم دالا فعوض جاز يقـــال داز، وعوض جسارة دسَارة ، وقلـــب الدال طاءً عربد : عربط، وقلب الشين جيمًا : المشحاح المجحاح .

وقلب الكاف همزة (كما أرسلنا فيكم رسولا) (أما أرسلنا فيئم رسولاً) !

وكان من العبارات العاميـــة التـــي أوردها الحلوي قولنا : وقعت الســـرقة مثلا في النهار (كهار) جعل الحلوي كلمة كهار مأخوذةً من كـــهر النـــهار ارتفع واشتدت حرارته، لكن الأســـتاذ صالح البكار وهو سفير تونـــس فـــي المغرب يرى أن كلمة (كهار) أصلـــها (جهار) ونحن نعلم قولهم :" كـــلّ مـــا يكمكم يُجمجـــم أو يقمقـــم " ، ويعلـــق الحلوي علىَّ ما ورد لي فـــي تفســـير كلمة السنداس التي جاءت في رحلـــة ابن بطوطة فيقول : إن السنداس كلمـــة عامية تعني الثقب والمجـــرى الـــذي يكون في بناية المرحاض .

ويأتي بكلماتٍ جديدةٍ نحو(المكفـط) بمعنى المشمّر ، والمشاوشة لنوعٍ مـن الصـــراع يعتمـــد علـــى الأرجـــل، والمصاقرة التي تعتمد علـــى الســـيف والعصا .

وقد كان من جديد مـــا قرأنـــا حـــول موضوع الألوان عند العامة ، أنها أي العامة وظّفت الطبيعة بأشـــكالها فـــي تشخيص الألوان وتحديدها، وقد ظـــهر

حبهم وافتتانهم بها في مظاهر شتى من حياتهم في الاحتفاء بالربيع والمهاداة بالزهور،وغرسِها في البيوت وتكريم الموتى بها في المقابر، ونظمها قلائد تزين بها الأعناق وأكاليلَ تُتوج بها الرؤوس، فمن السماء وزرقتها جاء اللونُ السماوي وضوء الصباح، ومن الأرض جاء اللون الحجري والرمادي، ومن الزهور جاء اللون الوردي والقرنفُلي واللون القيقلاني .

ومن الفواكه والمشروبات جاء النعت بالخُوخي والبنَاني والقُوقي والقرعي والخياري واللوزي والرماني والفلي والقزبري والخمْري والقهوي و(طاب ما طاب) هذا إلى اللون الزيتي والسمني والليموني والبرقوقي.

ومن الطيور أخذوا النعت باللون الكناري والحمامي والفاختي، ومن الحيوان اللون الجملي لأنه يشبه وَبَر الجمال، ومما يندرج في أخذ النعوت من الطبيعة نعتهم الثوب مثلا بالخابوري بمعنى الأصفر الفاقع اللون، وهو في الأصل شجر له نور أصفر ... .

وقد كنت آثرت في الثمانينيات الحديث عن كلمة تُستعمل بكثرة في المغرب تنعت بها السيدةُ المنحدرة من الرسول عليه الصلاة والسلام، أو أية سيدة تتميز بخلالٍ رفيعةٍ نبيلة ... هذه الكلمة هي (لالَّة) التي قلت عنها في أحد تآليفي[1] اعتماداً على بعض المصادر التركية[2]: قلت إنها من أصل تركي، لكن الأستاذ السفير صالح البكري سالف الذكر نشر رسالةً مفتوحةً في جريدة (العلم)في عددها بتاريخ٢٣ يوليه ١٩٩٧م يتساءل عن حقيقة الكلمة ، واستطرد بإثارة عدد من المواضيع التي استحقت من القراء جملةً من التدخلات والاستفسارات

(١) د.التازي:التاريخ الدبلوماسي للمغرب المجلد الأول ص٨٣ رقم إيداع قانوني٢٥/١٩٨٦م.

(٢) محمد فريد بك المحامي : تاريخ الدولة العلية العثمانية، دار الجيل ، بيروت ١٣٧٩هـ= ١٩٧٧م، ص١٠٦.

والإضافات المفيدة جدًّا للذين يـــهتمون بصلة العامية مع الفصحى .

وهكذا قرأنا للزميل الدكتور عباس الصوري تعليقًا مليئا بالفوائد التي كنـــا في حاجة إليها مثل صلة الكلمة بلغـــة الولوف السينيغالية ...

كما قرأنـــــا للســـيد محمـــد كمـــال الخمليشي تعليقًا رجع فيه إلى كتـــــاب الشيخ الصبيحي سالف الذكر .

وتبعه تعليق لأحدهم بتوقيـــع الأســـتاذ ع.ب.

ثم كان تعليق السيد محمد الصبـــار الذي جعل عنوان كلمته هكذا : " لالَّـــة أصلها لالا الأمازيغية ، ثم كان تدخـــل السيد عبد السلام الشفيرة الذي أثـــــار أيضًا نقاطًا فى غاية الأهمية مؤكدًا أن لغتنا العامية لغة البســـاطة والســـهولة والوضوح فيها ما هو منحـــرفٌ عـــن أصلـــه الفصيـــح إمـــا بالنقصـــان أو بـــالحذف والإضافـــة أو بـــالتغيير أو بالنحت أو بالدخيل أو بالولادة ، وينقل عن ابن الأعرابى : الأســـــماء كلـــها لعلة، خصت العرب ما خصت منـــها ، من العلل ما نعلمه ومنها مـــــا نجهلـــه فالإنسان سمي إنسانا لنسيانه، والبهيمة سميت بهيمة لأنها أبهمت عن العقـــل والتمييز .

وقد ختم هذا الحوار الســـيد علـــي العراقي بالميل إلى أن لفـــظ (لالا) ربما كان دخيلا على اللغـــة العاميـــة من أصل تركي .

لقد تعمدت ذكر كلِّ هذه الأســـــماء لأبرز أن الحوار علـــــى أشـــده فـــي الأوساط المغربية عبر الصحافة حـــول الفصيح " المدرج " أو رجوع الـــدارج إلى الفصحى، وقد تبع هـــذا الحـــوار نقاش جاد وحاد حول كلمة (المـــبرّز) وهل أن صوابها بكسر الراء أو فتحـــها؟ ثم تبع هذا تعليق حول كلمة : خـــرج إلى التقاعد، أو أحيل على المعـــاش،أو استراحة المحـــارب تعريبـــا للتعبـــير الفرنسي(Le repos du guerrier).

وقد كان مما أثار الانتباه حقا مـــا رردده الأستاذ صـــالح البكـــاري فـــي

معلومة له جديدة بعنوان " (كيـــف : أداة تشبيه فاتت اللغويين) .

ونظـــرًا لأهميـــة هـــذه المعلومـــة وصلتها بأحد الأعضاء الراحلين فـــي المجمع وهو أخونا محمد عبد الســـلام هارون محقق البيان والتبيين والحيوان للجاحظ،الذي جرد عشـــرات الألفـــاظ العربية مما لم يرد ذكره في المعـــاجم العربية التي بين أيدينا .. أقول لأهمية تلك المعلومة فـــإني أورد ملخصـــها هنا، قال الأستاذ البكاري :

ومن اللهجة التونسية أداة التشـــبيه (كيف) يقابلها في اللهجـــة المغربيـــة (بحال) والناظر إلى هاتين الصيغيتـــن يدرك ما بينهما من تقاربٍ في دلالتهما على الكيفية والحالـــة ... وإذا قلـــت فلان كيف فلان؛ فإن المعنـــى أنـــهما "زي بعض " ، كما يقولون في مصر، وهكذا يتبين أن (كيف) الموســـومة عند اللغويين بأنها أداة اســـتفهام هـــي أيضـــا أداة تشـــبيه ، ولكـــن لا أثـــر لوظيفتـــها هـــذه فـــي كتـــب اللغـــة والمعاجم...

ويقول الأستاذ البكـــارى : إن هـــذا الرأي تعزز عنده بما وجده في شـــعر دريد بن الصِّمة حين يقول في وصـــف جري فرسه بصيغة المؤنث :

لها حَضَرَ كيف الحريقُ ، وعقبها
كجسم الخَسِيف بعد معمعة الورد

وهو يشبه الفرس في عدوه بالنار كمـــا قال العسكري في ديوان المعاني . ولا أدري – يقول البكـــاريّ – علـــى أي أساس ورد لفظ الحريق بـــالرفع إذ إنّ أدوات التشبيه كلها تجر بالإضافة.

ويضيف الأستاذ البكاري إلى كلمـــة كيف كلمة (تقول) التي تستعمل فـــي بلاد المغرب على أنـــها أداة تشـــبيه وعلى نحو ما ورد في ديوان دريد :

تقول هلالٌ خارجٌ من غمامة
إذا جاء يجرى في شَلِيل وقَوْنَس

ومن اليسير استبدال كلمـــة (تقـــول) بكلمـــة (كأنـــه) ، وفـــي دارجتنـــا المغربية تعبير : (سُلَيمان تقول أبـــاه يونس) يعني كأنـــه أبـــوه! وهكـــذا

احتفظت كلمة (تقول) أيضا باستعمالٍ وظيفي فات اللغويين .

السادة الزملاء الأعزاء :

ذلك حديثي الموجز عن اهتمام المغاربة بقضية الفصيح والعامّي ببلادنا ... وأرجو أن أنبه – لكي أكون أمينًا في بحثي – إلى أن هناك اهتمامات تجلت فيما كتبه المستشرقون على شكل معاجم أو مقالات تعتمد على الاستقراء والتتبع، وهي لا تخلو من فائدة لمن يهتم بإرجاع العام إلى الفصيح، علاوة على أن أولئك المستعربين قد يهتمون أيضا بقضية رجوع اللهجة البربرية أو بعضها إلى الأصول العربية وهذا أعدكم بتناوله بتفصيل إن شاء الله في مرحلة مقبلة .

عبد الهادي التازي

عضو المجمع من المغرب